٣ — حديث إلى الشباب المثقف

لصاحب السعادة محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارة الشؤون الاجتماعية

فليكن حديثى اليوم إلى الشباب ، فالشباب فى كل أمة مناط الأمل وموضع الرجاء ، وما كان للشباب هذه القيمة إلا أنه ربيع الحيوية فى فصول العمر ، وقد يكون الشباب شيخوخة عاجزة ، وكذلك قد تكون الشيخوخة شبابا فتيا ، فليس الشباب شباب السن وإنما هو شباب القلب والروح ، ولا يتحقق إصلاح إلا إذا أمدته الأرواح والقلوب بالقوة والفتوة ، وخير ما أمهد به حديثى إلى الشباب أبيات لشوقى يقول فيها :

قل للشباب مقال صدق واقتصد ... ذرع الشباب يضيق بالنصاح
أنتم بنو اليوم العصيب نشأتموا ... فى عصف أنواء وهوج رياح
ورأيتم الوطن المجمع صخره ... فى النائبات وسيلها المجتاح
وشهدتمو صدع الصفوف وما جنى ... من قول مفتات وإفك وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجمعا ... فإذا تفرق كان بعض نباح

وإذا أنا تحدثت عن رسالة الشباب فى الاصلاح الاجتماعى فلست أقصد ذلك المحيط الضيق الذى يتبادر الى الأذهان حين يحضرها ما يتطلب المجتمع من إصلاح ، فكثيرا ما يسبق إلى وهمنا أن الإصلاح يتم برعاية تتناول الفقير والبائس والمحروم ، ولكنى أقصد الأفق الفسيح الذى يلائم طموح الشباب ويتناول إعداده للحاضر وأمله فى المستقبل وجهاده فى سبيل الإصلاح الجوهرى العام .

فأما العون على بناء مستشفى أو إنشاء دار كفالة أو الاشتراك فى مبرة فإن ذلك كله أثر للوعى القومى إذا انتبه من غفلته ، بيد أن رسالة الشباب أبعد من ذلك مدى ، فهى تشمل الأوضاع التى يقوم عليها المجتمع فى صميمه ، ولذلك يجب علينا أن نتبين أولا : ما حال المجتمع الذى نعيش فيه ؟ أنى أعمل فى ميدان إصلاحى محدود ، وقفت عليه راحتى وتفكيرى خارج نطاق الوظيفة ، ولكنى استطعت فى هذا الميدان المحدود أن أتمثل النظام الاجتماعى العام ، وأن أستبين علله وأمراضه ، فحين توجه الشباب لخدمة المجتمع يجب علينا أن نصوره له ليعرفه إذا ارتاده مصلحا أو مجندا للاصلاح . وعلينا أن نؤمن بأننا إذا شئنا غزو الباطل فى مجتمعنا المصرى كان لزاما أن نحشد للكفاح كل عدة ، فلم تعد الحروب سلاحا يقاوم سلاحا ، فلنحشد الثقافة على اختلاف فروعها ، نحشد الأدب مجندا والتاريخ مجندا والفلسفة مجندة . ولا بد فى الحروب من الوقوف على نفسية العدو فلندرس طبائع العلل والأمراض

التي تتفشى في مجتمعنا ونفسية المرضى ، والحروب إنما تنشب لمقاومة العدو الخارجي وذلك هو الجهاد الأصغر ، وإنما الجهاد الأكبر جهاد النفس ، جهاد العدو الداخلي ، فلا يرجى قيام أمة فسدت داخليتها ، لأن عوامل الفساد في باطنها تنهك أوصالها عضوا عضوا وتدعها طعمة للفناء

والشباب المصري حين يعمل في ميدان الإصلاح الاجتماعي يستقبل بدعا في المجتمعات. يستقبل مجتمعا توافرت له كل العلل الصحية والاقتصادية والخلقية ، فالميدان أمامه فسيح الرحاب ، والأرض فيها مجال للإصلاح أي مجال ، واليأس منه قريب المنال ، والأمل في النجاح بعيد الاحتمال ، فلا بد من قوة جبارة ، ولا بد من صبر لا ينفد له مدد . سيواجه الشباب مجتمعا رانت الأمية على ثمانين في المائة من رجاله ، وعلى خمس وتسعين في المائة من نسائه ، والأمية هي الظلمة الحالكة ، وهي انقطاع أنفه موارد العرفان ، وهي الفقر المادي والروحي لأن الغنى وعلو الهمة ووفور الكرامة سبيلها تسخير المعرفة ، وهي الفقر الصحي، لأن الصحة لا تستكمل إلا بالتداوي على أساس العلم الحديث . وها نحن أولاء في القرن العشرين ما برحنا نفكر كيف نبدأ في مكافحة هذه الأمية الفاشية ، ومن عجب أن يكون هذا في بلد أغلب أهله يعتنقون الدين الذي يحض على طلب العلم ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقد افتدى محمد صلوات الله عليه جماعات الاسرى بتعليم المسلمين ، وجاء القرآن يدعو الى النظر في شؤون الكون وسنن الحياة ، وعلى الرغم من هذا كله مازلنا نتخبط من الجهالة في ظلمات بعضها فوق بعض ، ولذلك تذهب الجهود الاصلاحية إدراج الرياح . يكتب الكاتب فلا يجد من يقرأ ، ويعظ الواعظ فلا يلقى من يعي ، فإن اهتزت الرءوس حول منابر المساجد اهتزت من باب التقليد والمحاكاة لا من الوعي لما يلقى من عظات وهذا سر ما نشكوه من أن القوانين الاجتماعية التي تفرض الالتزامات لمصلحة المجموع تبقى حبرا على ورق ، لأن الأمي يحسبها نقمة مصبوبة على الأمة ، فيحتال للخلاص من سيطرتها بالرشوة والتزوير والكذب ، وهيهات أن تؤتي جهود المصلحين أكلها ما دامت الجهالة تنفث جراثيمها ، وهذا هو الريف الذي يطبق عليه الجهل تندثر فيه معالم الطب لتقوم مقامها معالم الخرافات والأساطير ، على حين أن المرض يبسط سلطانه على أهل الريف ، حتى قال وزير سابق للصحة أن الأمراض المتوطنة وغير المتوطنة تشيع في القرى بنسبة خمسة أمراض لكل شخص تحتل جسده المنهوك وتزيد حياته بؤسا وشقوة وتعاسة .

وماذا نرى في مجتمعنا إذا نظرنا اليه من الوجهة الاقتصادية؟ سيرى الشباب حفنة من الأغنياء يتمتعون بالمال الموفور ، ومن ورائهم شعب من الفقراء لا يزيد مورد الواحد منهم في المتوسط الغالب على خمسين قرشا في الشهر ، حتى أن الحكومة لما أعفت صغار الملاك من قسط كبير من الضرائب انتفع بهذا الإعفاء بضعة ملايين ، فإذا أردنا أن نحكم على الامة الأمة حكما صحيحا فتكن أمامنا هذه الحقيقة ، أقلية تنعم بالمعرفة العليا ، وترتع في بحبوحة الثراء العريض ، فإما عماد مصر ، شعبها الذي يرجع اليه وقت الشدة ، فهو فريسة الجهل

والفاقة ، وما الخاصة من الأغنياء — كما قال على بن أبى طالب — ألا فئة حملها ثقيل، ونفعها قليل .

سيواجه الشباب أيضا ذلك الفقر الروحى، ولا خير فى أمة تفقد روح الطموح والتعاون وإيثار المصلحة العليا على غيرها ، وفى التاريخ عبر تهتف بنا أن لا غناء فى علم ولا غنى إذا تدلت الأخلاق الى الحضيض وهى دولة الروم والفرس فى سالف أيامهم وعظمتهم لم يثبتوا أمام فئة من العرب تسلحت بالروح القوى، فما أغناهم علم ولا مال ولا سيادة عن أن يسقطوا صرعى أمام صولة الروح وحمية الإيمان .

لن يجد الشباب فى ميدان الاصلاح الاجتماعى إلا جوا مسمما يعمل خفية وعلانية على قتل روح الشباب، فإذا أراد شبابنا فوزا فى المعركة فليعد للأمر عدته وليتخذ للنضال وسائل الهجوم والدفاع ، فإنهم سيلاقون المثبطات فى كل ناحية ، وسيلقون الجزاء لا من جنس العمل، بل على عكس العمل ، وفى هذا ما يبعث اليأس فى النفوس إلا من عصم الله .

ولن يستطيع الشباب أن يؤدى رسالته إلا إذا أعد إعدادا قويا لهذه الأحداث ، وليست المعاهد العلمية تؤدى من هذا الواجب قسطا يذكر ، ففترة التعلم مقصورة على تلقى العلم ، وما يبنيه المعهد يهدم أكثره المنزل ، فالأمية غالبة ، والأمهات لا يصلهن بالمعرفة أى سبب ، وهؤلاء هن اللواتى يرعين الأطفال ويوجهن الشباب ويلهمن الرجال .

وإذا النساء نشأن فى أمية   رضع الرجال جهالة وخمولا

على أن النشء حين يخرج من محيط المعهد الى محيط الحياة يعصف هذا المحيط بما يكون قد بقى فى نفوسهم من خير ، وإذن ينزل بهم الى هوة سحيقة من الضعف النفسى والخلقى .

فشباب الاصلاح الاجتماعى يستقبلون حياة تتطلب روحا قوية . ولن تتم لهم هذه الروح إلا إذا أنشأتهم أسر صالحة تترعرع فيها الطفولة ويطمئن إليها الشباب وتركن إليها الرجولة . فلا بد إذن من إعداد المرأة قبل كل شيء . ولا بد من تربيتها تربية دينية صحيحة تصطبغ بها نفسيتها وتسمو روحها .

ولن يمنعنا ما نتصوره من بعد الشقة وثقل الأعباء عن مخاطبة الشباب ، فقد تبلغ الدعوة فردا يكون به صلاح الأمة ، ولم تقم عظمة الأمم إلا على كواهل أفراد قلائل ، وهذه هى الرسالة المحمدية اضطلع بها فرد واحد اكتملت له عظمة الروح وقوة الإيمان فنشر رسالته فى العالمين نورا وهدى .

والشباب ابن الحاضر وعدة المستقبل ، والحاضر إلى زول، والمستقبل إلى وجود ، فالحاضر عتبة المستقبل ، والشباب هو الذى سيواجهه ، فعليه أن يعمل له ، وأن يسمو إلى مستوى يحمل رسالته قومية إنسانية ، فاذا غضب غضب للحق وللعدل ، غضب على أن تقوم للباطل قيامة . وعلى الشباب أن يجند نفسه للجهاد، ويأبى أن يكون مطية للشهوات وإرضاء الجماعات ، فهو صاحب المستقبل : الحاضر مول بماله وما عليه، أما هو فمقبل على غد جديد ، يستطيع أن يصوغه كما يريد .

فلينشر الشباب رسالة الثقافة ، ولا يدع ذلك على عاتق الحكومة وحدها . وفى رأيى أن الزكاة ليست فى المال دون غيره ، وإنما هى فى العلم والقدرة والصحة وكل نعمة من أنعم الله على عباده ، فليؤد الشباب زكاة العلم والصحة والنعمى فى سبيل الوطن . إن ساعات النهار والليل لم تزل كما هى ، ولكن طغى الهوى وحب الشهوات والمتع غير البريئة على الوقت أجمع ، فمضى فى غير منفعة ، وقد آن للشباب أن ينفقوا وقتهم فى نشر رسالة ثقافية تنتظم المدائن والقرى ، وليبدءوا بأسرهم وعشيرتهم وأهليهم ليبنوا مجدهم ومجد البلاد .

وعلى الشباب الغنى أن يجعل للفقير نصيبا من ماله ، وهو بذلك يخدم نفسه ، فكيف يصح فى العقل أن يعيش الشباب سعيدا بين أشقياء ، صحيحا بين مرضى ، متعلما بين جهلة ؟ أيأنس الشباب بهذه الحياة ؟ فليعمل ما يوفر لنفسه عيشة كريمة فى بيئة صالحة لا يرى فيها فقر ولا بؤس ، ولا تسمع فيها آنات وزفرات ، ولا تقع العين على مناظر من الشقوة تؤذى الضمير وتجرح الفؤاد ، وقد جعل الاسلام الزكاة ركنا من اركانه ، وهى فى الحق أساس النظام الذى يجتب الدولة شر الرأسمالية البغيضة والشيوعية المردية ، فليجعل الشباب أساس الاصلاح تنبيه الأغنياء إلى واجبهم حتى تضيق الهوّة التى تفصل بين طبقات الناس ، وتجعل بعضهم أعداء بعض ، فمن مصلحة الأغنياء أن ينزلوا إلى مستوى الشعب ليتألفوه ويردوا عن أنفسهم غيلة هؤلاء الجياع العراة ، فاذا كانت دعوة البر لا تجدى فيطلب الشباب أن يتدخل المشرع بسيف القانون ويفرض البر على القادرين فرضا ، وبذلك يحارب المرتدون عن البر كما حارب أبو بكر المرتدين عن الزكاة .

وعلى الشباب أن يجند نفسه فى سبيل الصحة ، فان كلا من الشتاء والصيف يتلقى الشعب بأمراض فاتكة وأوبئة قاضية تفتك بالألوف ومما يزيد الأمر خطرا أن الجهالة تزين للمرضى أن يردوا عادية المرض الى الجن والشياطين ، ولذلك تذهب النصائح الصحية بددا ، فأمام الشباب مهمة سامية هى التنوير والتبصير .

وعلى الشباب أن يواجه الميدان الاقتصادى لإقامة ميزانه بالقسط ، فان معيشة الفلاح فى ملبسه ومسكنه وما كله كمعيشة الانسان البدائى ، وأنا لا أدعو إلى صدقة يهدر لها ماء الوجه وتضيع الكرامة ، وإنما أدعو إلى أن ينظم البر لكى يكون إنتاجه شريف الكسب أريد نظاما كنظام محمد صلوات الله عليه حين سأل سائل فقال ما معناه أعطوه دراهم ليصعد الى الجبل كى يحتطب فيشترى ويبيع . فيجب أن تكون رسالة الشباب تزويد العاجزين عن الكسب بوسائل أو برءوس أموال صغيرة يستعينون بها على الصناعة أو التجارة ويعيشون عيشة كريمة بعيدة عن عار الخمول ومسبة الاستجداء .

وعلى الشباب أن يبث روح القدوة فى الناس فلا خير فى دعوة لا تؤازرها القدوة الحسنة ، فاذا دعا الشباب الى الاستقامة والأمانة فليكن مثلا عاليا فى الاستقامة والأمانة ، واذا دعا إلى الحرمان فى سبيل الوطن فليكن أول محروم ، ونحن نرى كثيرا من الدعوات لا تجد

لها سميا لأن أصحابها لم يؤمنوا بها ، فلتكن رسالة الشباب أن يكونوا قدوة صالحة عاملة حتى يضمنوا لرسالتهم النجاح .

وإنى أعتقد اعتقادا لا يتطرق اليه الزيغ أن الرسالة الروحية أس النجاح فى كل مهمة وكل سعى ، فليكن الإيمان العميق أول ما يملأ قلب الشباب وأكبر ما تفيض به نفسه ، فان لم يؤمن برسالته أنبت به الطريق وخابت مساعيه ، ولست أقول ذلك من باب الوعظ وإنما أنا واثق أن دعم الروح أساس لابد منه ، وأن التدين خير ما ندعم به الروح فنقوى الله دعامة كل إصلاح وسبيل كل فلاح ، فليتخذ الشباب الوحدانية التى قام الاسلام على أساسها لرسالتهم الكبرى ، وليرد كل شىء الله ، فلا يتملق أحدا لأن هذا شرك ، ولا ينافق أحدا لأن هذا شرك ، ولا ينصر الباطل لأن خذلان الحق شرك . وما هو الشرك ؟ أليس هو أن تشرك بصاحب العظمة المتفرد بالسلطان ؟ فيجب إذن أن تقوم رسالة الشباب للخير فى سبيل الله ، وأن يوطن الشباب نفسه على الاستهانة فى سبيل أداء رسالته بكل ما يلقى من عذاب وحرمان ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

محمد العشماوى

المستشار الملكى ، ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

مما قاله « الرشيد » لمعلم ولده « الأمين » :

يا أحمر . إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن — وعرفه الأخبار . . وروه الأشعار — وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه — وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالغلظة والشدة .